المبحث الرابع

****

بناء الأحداث
في السيرة الذاتية الروائية

- الأحداث بين الواقع والمتخيل .
- حياة المؤلف والواقع المعيش .

يخضع بناء الأحداث فى السير الذاتية (ذات الشكل الروائى) لطريقة البناء المتتابع للأحداث، وفيه تسير الأحداث سيرا طرديا، تبدأ الأحداث ببداية حياة صاحبها وتنتهى بآخر حدث للفترة الزمنية التى يقف عليها المؤلف (الراوى أو السارد) من حياته ويقوم المؤلف هنا (فى السيرة) بدور الراوى (المشارك الراصد الذاتى الغيرى) أى الذى يسرد لنفسه ولغيره فى آن واحد، من خلال زاوية رؤيته التى يسرد بها الأحداث وهذه الزاوية (أو الرؤية السردية) يترتب عليها رؤيته فى بنائه الروائى، من اختيار لطريقة السرد، وتنسيق الأحداث، وبناء الشخصية .. كل ذلك للتوجه بعمله الأدبى نحو المتلقى فى صيغة فنية جيدة ومؤثرة (١).

أغلب كاتبى السيرة انتهجوا فى ترتيب أحداثهم (البناء المتتابع للأحداث) باستثناء محمد شكرى الذى لجأ فى رواية (الشطار) إلى استخدام تكنيك تيار الوعى *Stream of Concious* وفيه يكون الانسياب المتواصل للفكر والإحساس فى العقل البشرى وذلك باستخدام المنولوج الداخلى والأسلوب الحر غير المباشر، وفى هذه الطريقة تقدم الأفكار على هيئة حديث يسرد، بضمير الغائب وفى الزمن الماضى (٢).

وهناك ملمحان فنيان لبناء الأحداث فى السيرة الذاتية الروائية – وفى الأدب عامة – وهما خضوع الأحداث لمبدأ الانتقاء، والملمح الثانى هو أن الفن يضفي على الأحداث طابعا جماليا، فنرى الشئ فى عالم الفن أجمل من عالم الواقع حتى لو التزم المبدع بالواقعية فى صياغة عمله الفنى.

---

(١) راجع: وجهة النظر فى روايات الأصوات العربية د. محمد نجيب التلاوى ط اتحاد الكتاب العربى دمشق عام ٢٠٠٠ ص ١٤، ١٥

(٢) راجع الفن الروائى ديفيد لودج ترجمة ماهر البطوطى ط المجلس الأعلى للثقافة القاهرة عام ٢٠٠٢ ص ٥٠، ٥١

وعن الملمح الأول يقول ميخائيل نعيمة إنه يستحيل أن أعرض لحياتى لمحة لمحة حسب تسلسلها فى الزمان والمكان .. وأن انتزع من كل لمحة جميع ما حملته إلى من موحيات وتخيلات ، وجميع ماحملها من حركات عفوية ، وغير عفوية ، ومن وساوس ورغبات ، ومن أحلام وملذات ، وأوجاع كتمت بعضها على الناس وفضحت بعضها (١) واعترف بأنه سيعطى للناس من حياته ما يهمهم من مؤثرات فى نشأته وتربيته وتكوينه النفسي والوجدانى والعلمى أما " من أين أرزق ، ماذا أكل وأشرب وألبس ، وما الذى كان بينى وبين نساء أحببتهن ،ومتى حزنت وبكيت .. هذه الأمور كلها وكثير من نوعها ، فما ظننت أن للناس أى نفع فى معرفتها ، لذلك أهملتها الإهمال كله " (٢) فهذه أمور لا تعنى الناس ، وفى الوقت نفسه مضرة بالعمل الأدبى الذى يقوم على الانتقاء لا الرصد والتسجيل ، فميخائيل نعيمة – هنا – كما ترى د يمنى العيد " يشير بوضوح إلى رؤية معيارية ، تحدد لصاحبها ما يمكن أن يحكيه من سيرته الذاتية ، وما عليه إهماله ، وفى هذه السيرة ، كما يشير إلى نوع من الاستنساب واستحالة الالتزام بتسلسل زمن المرجعى وعجز الكتابة عن استعادة كل أبعاد المحكى (٣) .

أما عن الملمح الثانى (الفن يضفى على وقائع الحياة طابعا جماليا) فيرى محمد شكرى فى الشطار أن المستشرق اليابانى (نوتاهارا)بعدما أخذ فى ترجمة (الخبز الحافى) ووصل حتى الصفحة الثلاثين طلب منه أن يزور الأماكن التى جرت فيها أحداث (الخبز الحافى) وبدأ بتطوان فزارا الصهريج ، فتعجب قائلا : فى كتابك تصف هذا الصهريج وما حوله بكثير من الجمال .. فرد عليه هذه هى مهمة الفن ، أن نجمل الحياة

(١) راجع : سبعون المرحلة الأولى ميخائيل نعيمة ص ٩
(٢) م. نفسه ص ١١
(٣) السيرة الذاتية الروائية د. يمنى العيد ص ١٢

حتى فى أقبح صورها [١] ثم عاد وقال " أستطيع أن أولد من أكثر الأيام كآبة وعوزا بعض المتع " [٢].

فالسيرة - كأى نوع أدبى - تخضع لمبدأ الانتقاء لا النقل الاستنساخى للواقع وفى الوقت نفسه نرى الأحداث فى صياغتها فنيا أكثر جمالا وروعة من رؤيتها فى الواقع، وإذا كانت السيرة فنا يعتمد على الحقائق (لا على التخيل) فى سرد حياة صاحبها، فهنا يطرأ على الذهن سؤلان :

- **السؤل الأول** : أين دور الخيال فى السيرة ؟
- **السؤل الثانى** : ما العلاقة بين حياة الكاتب وأحداث الواقع الذى يعيشه صاحبه ؟

سنقف فى درا ستنا علي هذين المحورين .

١- الأحداث بين الواقع والمتخيل :

إذا كانت السيرة (الروائية) فنا أدبيا يلزم صاحبه بالصدق فى أحداث حياته مستخدما تقنيات الرواية، فى تصوير الأحداث، وتلوينها بوجدانه، والوقوف على شخصية صاحبها نافذا إلى الأعماق بالاستبطان وتحليل المشاعر، وخلق نسيج روائى يتوافر فيه الإحكام والاتساق الفنى، ورسم ملامح شخصياته، وتصوير الأحداث وتطورها ناهيك عن استخدام الحوار (كتقنية من فن الدراما) كل هذه سمات روائية والرواية كما مر بنا (فن تخيلى) فأين مساحة التخيل فى السيرة الذاتية الروائية التى تعتمد على صدق صاحبها فى استعراضه لحياته ؟!.

إن تصوير الأحداث فى حد ذاته عمل تخيلى، يعتمد على التذكر والتداعى، والربط بين عناصر الموقف، ليبرز أمام أعيننا وكأنه شاخص ماثل أمامنا نراه رأى العيان، وفى

---

(١) راجع الشطار محمد شكرى ص ٩٤
(٢) م. نفسه ص ٩٦

استبطان الكاتب لمشاعره ولداخله ، ولمشاعر غيره الباطنية يلعب الخيال دورا فى هذا الاستبطان ، لتبرز الشخصيات أمامنا مصورة مجسده (كما رأينا مثلا فى تصوير شخصية سيدنا والعريف وشخصيات الربع في الأيام ... الخ)

ونقف على بعض مشاهد من (الوسية) لخليل حسن خليل لإبراز دور الخيال فى التشكيل الفنى للسيرة التى تعتمد على صدق وقائع حياة صاحبها وفيها يحول الأحداث إلى مشاهد شاخصة أمامنا فعندما يعرض لمجئ عالية ابنة عمته التى كانت تعيش فى القاهرة فبدلا من قوله كانت عالية جميلة ، وأعجبنا بها كأطفال يقول فى نسق أدبى فيه دفء اللغة ، ورقاقة الألفاظ ، وجمال التصوير " كانت فى التاسعة عطرة كالزهرة ، دقيقة كالنسمة ، وجهها مستدير ، وشعرها حرير ، وعيناها زرقاوان وجنتاها وردتان ، ... هبطت فى بيئة ريفية خشنة ، وتركت خشونتها على وجوه بنيها وفى أصواتهم ، تجمع أطفال القرية حول تلك الوردة ويستجلون نضرتها ، ويستروحون شذاها ، أخذت الفتاة تطفر بيننا كالعصفور ، وكنا نحوط بها كالغربان، ولكن والحق يقال كنا غربانا أليفة تحرسها عيوننا التى توميض بالإعجاب ، وقلوبنا التى تفيض بالحب " (١) .

فالكاتب التزم الصدق فى ذكره زيارة خالته وابنتها الجميلة للقرية ، ولكنه صور جمال هذه الفتاة ورقتها وألف أترابها لها ، ورغم الفارق الاجتماعى .. مستخدما الخيال فى التشبيهات المتعددة ، وفى تصوير مشهد يجمع بينها وبين أترابها يبرز الإعجاب والحب لها .. إلخ ثم يستنطن ذاته بعد معريا شعوره الطفولى (البرئ) نحوها قائلا " كان الأطفال ينصرفون وكنت أمكث معها ، وأحس بشئ يدب فى أوصالى ويسرى فى وجدانى .. ارتحلت مع أمها ، وتركت فى الجوانح شوقا ، وفى القلب حركة ، وفى الخيال جموحا ، إن

(١) الوسية خليل حسن خليل ص ٢١

الومضة الحلوة التى انساحت فى القرية مع وجه " عالية " استحالت إلى شعاع من الظلمة" (١).

ولم يعد مفهوم التخيل فى عصرنا رسم الصورة الفنية متقوقعا فى إطار منظومة البلاغة القديمة (تشبيه – استعارة – كناية – مجاز ... إلخ) ولكن التخيل يقوم برسم المشهد فنراه شاخصا أمامنا ، ومن منا ينسى لطه حسين مشاهده فى القرية (وصف الكتاب وسيدنا العريف وغناء سيدنا ، وصف مشهد مجئ إحدى الفرق الصوفية – مشهد موت أخته ، مشهد موت أخيه ... إلخ) .

أليس ذلك من صنع الخيال الذى – كما قال كولردج – يجمع بين أطراف المتنافرات فى ربقة واحدة ، إن طه حسين فى صياغته لهذه المشاهد كان فى ذهنه إطار المشهد ، ثم عرج على الخيال فملأ فراغات هذه المشاهد . أليس الاستبطان الداخلى هو تصوير لمشاعر داخليه دفنية ، ويقوم بهذه العملية الخيال ؟!

فالخيال هو الذى ينقل الفكرة الجامدة إلى مشهد حافل بالحركة والنبض والحياة وهذا ما بنيت عليه السيرة الذاتية الروائية (تصوير للمواقف فى مشاهد شاخصة أمامنا نراها رؤى العيان) ونضرب مثلا هنا من الوسية لقد اضطر (خليل) لفقره أن يسرق فى المطعم ، ليأكل ما يسرقه فى العشاء ثم فى الإفطار اليوم التالى ، فبدلا من قوله بصورة تقريريه جافة (لقد كنت أسرق أنا وأحمد (ابن عمه وصديقه) من مطعم المدرسة طعاما نتعشي ونفطر به) يصور هذا المشهد فى قوله " كان يخيل إلى أن الفراشين يحملقون فى ويتابعون حركات يدى ، ولمحت أحمد على المائدة المقابلة ، يضع لقمة فى فمه ويضع أخريات فى جيوبه ، وكان ينتظر إلى مشجعا أحيانا ، ومنذرا – أحيانا أخرى ، على أنه

(١) م. نفسه ص ٢٢

ملأ بطنه وجيوبه ، ولم يعد فى حاجة إلى أن يعنى بشأنى فانصرف .. وبقيت أنا التلميذ الوحيد فى المطعم مع الفراشين .. هممت بوضع لقمة فى جيبي ، فنظر إلى أحد الفراشين فتوقفت .. تجمدت أصابعى ، فوق قطعة الخبز لم تعد تبدى حراكا – لا أستطيع أن أضعها فى جيبي ، لابد أن أكلها رغم حاجتى إليها " (١) .

انه يصور حركة النفس الداخلية مع هذا المشهد الحياتى (الواقعى) ليكون أكثر وقعا فى النفس فى تعبيره عن الفقر الذى اضطره إلى السرقة (لبقايا أكل زملائه) وحيائه من الفراشين الذين يرمقونه بنظرات قاتلة .

لا يقوم الخيال فى السيرة الذاتية بدور تصوير المواقف فى مشاهد نابضة بالحركة والحياة فقط ، بل يقوم الخيال أيضا بالتمهيد لعرض الأحداث ، مستخدما الوصف (الزمانى والمكانى) لمسرح الأحداث ، ففى الرواية نفسها يصور استعداده للذهاب إلى المدرسة الثانوية (فى الزقازيق) مع ابن عمه وصديقه أحمد ممهدًا بهذا الوصف "أيقظتنا الديكة فى صبيحة اليوم الذى سنشد فيه الرحال إلى الزقازيق ، وكأن الديكة تصيح بالفجر أن يشقشق ، وبالصبح أن ينبلج ، وبالنور أن يمزق ذلك الستار الكثيف القائم الذى يفرضه الظلام على الكون ، أعدت والدتى " سبت العيش " الذرة ، والجبن القريش ، جاءوا بحمارة أعارها لنا جارنا ، لشد ما كانت فرحتى ودهشتى إذ قبل أن أعلو ظهر الحمارة ألمحت أحمد قادما يمتطى حمارته "(٢)

ويستخدم الخيال أيضا فى وصف المكان ، وبذلك يضفى على العمل الفنى صفة المصداقية ، لأن الأحداث لابد أن تقع فى حيز زمانى ومكانى ، وقد رأينا تمهيد الكاتب للأحداث ، وذكره للزمان (وانبجاس الضوء .. إلخ) يصف خليل حسن خليل الغرفة التى

(١) م. نفسه ص ٤١ / ٤٢
(٢) م. نفسه ص ٤

أقام فيها - هو وزملاؤه - فى كفر صقر وهو تلميذ فى الابتدائية " وكان غريبا أن نستذكر دروسنا فى هذه الغرفة ، فهى ضيقة ، طليت قديما بالطين الذى شققه القدم ، وبها نافذة واحدة صغيرة ، تطل على شارع ضيق قذر ، يلوثه الإنسان والحيوان ، كان صاحب المنزل وزوجته يعيشان معنا فى نفس الغرفة ، كان الرجل يشعل حطبا فى موقد من الفخار ، ثم يبدأ فى تدخين الجوزة ، فيعبق جو الغرفة بدخان كثيف ، ويصبح البقاء فيها مستحيلا إن عيوننا لا تستطيع أن تتبين سطور الكتب والكراريس ، والدخان الكريه - وبعد أن يخفت صوت الجوزة ، .. ونكون نحن قد آوينا إلى الحصيرة ، كان يبدأ مع امرأته فصلا آخر لا حياء فيه .. (١) .

إلى جانب تحويل الأحداث إلى مشاهد حية ، والتمهيد لها ووصف الزمان والمكان يتدخل الخيال فى السيرة الذاتية الروائية فى ملء فراغات الأحداث التى يتذكرها المؤلف خاصة البعيدة زمنيا كأيام الطفولة ، والتى أشار - غير واحد - إلى صعوبة التذكر فحنا مينا يقول : " عسير على المرء أن يذكر أيام طفولته بكل تفصيلاتها ، أنا لا أذكر كيف تقضت الشهور الأولى من دراستى (٢) ويقول عبد الله الطوخى " تذكر أحداث سنوات الطفولة الأولى مستحيل لسبب بسيط لأن الذاكرة نفسها فى تلك الفترة تكون فى دور التكوين " (٣) ومر بنا قول جورج مور أن المرء ليطالع ماضى حياته ، مثلما يطالع كتابا قد مزقت بعض صفحاته ، وأتلف منها الكثير. فإعادة بناء هذه الأحداث بعد استرجاعها من معين الذاكرة هذا من عمل الخيال ، وأكثر من ذلك ذكر بعضهم لأيام الطفولة خوفه من الجن والعفاريت وتخيله لهذه المخلوقات وهذا عمل تخيلى ليس إلا .

---

(١) م. نفسه ص ١٢ ، ١٣
(٢) المستنقع حنا مينا ص٤٠
(٣) عينان على الطريق - التكوين عبد الله الطوخى ص ٦٠

إن أكثر السير التى اطلعنا عليها تتصف بجمالها فى تصوير أيام الطفولة ، رغم أن تذكر هذه الأحداث بحذافيرها أمر مستحيل ، ولكن الخيال كفيل بنسج بقايا خيوط هذه الأحداث التى جاءت كما قال حنا مينا عن بيته الذى ولد وفيه فلم يبق منه إلا صور غائمة (١) .

وحنا مينا الذي يعترف بصعوبة تذكر أيام الطفولة يروى لأحداث حياته من السنة الثالثة حتى الثامنة فى (بقايا صور) ومن الثامنة حتى الخامسة عشرة فى (المستنقع) يتذكر هذا الكوخ الذى نشأ فيه (فى حقل التوت) ويحكى عن ترحال أسرته إلى (السويدية – قرة أغاش – الأكبر) (٢) كل هذا وهو دون الثامنة ، فلا شك أن الخيال هو الذى نسج أحداث حياته فى هذه الفترة ، فيتذكر دقائق الأمور كقوله عن مرض أبيه بالملاريا وفعل مثل غيره من الفلاحين الذين كانوا يتداوون بشرب بولهم يقول حنا " لقد شربنا بولنا " (٣) ويذكر هذا الطفل أن الأيام كانت تمر رتيبة ملولة ، ويزداد الفقر حده فى فصل الشتاء ، ويزداد هطول الأمطار ، وكان يفرح لذلك ، لأن اللصوص كانوا يقلعون عن غاراتهم على البيوت فى الحقول المجاورة (٤) وينسى المختار وجودنا فى حقله ودينه فى رقابنا فلا يرسل خفيرة يستدعى الأم كما حدث سابقا (٥) .

وينفعل الطفل بهذا الطقس ، ويتقوقع داخل نفسه مصورا ما رآه " مطر مطر مطر جو رمادى والسماء على مدى البصر ، فضاء عبوس ، كأن لا شمس بعد ، ولا قمر مطر ، ولا شئ غير المطر (٦) والشئ المذهل أنه يصف أشياء دقيقة فى هذه الفترة مثل تربية أسرته لدودة

---

(١) راجع بقايا صور حنا مينا ط دار الآداب بيروت ط ٥ عام ١٩٩٠ ص ٥٦
(٢) راجع : م. نفسه ص ٥٦ ، ٥٧ وص ٢٠٩ إلى ٢٢٩
(٣) راجع : م. نفسه ص ١٨٢ : ١٨٣
(٤) م. نفسه ص١١٢
(٥) م. نفسه ص ١١٣
(٦) م. نفسه ص ٩٧

الحرير، ويبدأ الوصف من استلام البذار المستوردة من أوربا، إلى عملية التقفيص، إلى صنع الجلة (رؤث البقر المجفف) وقودا لتدفئة بذار الدود إلى صنع الكرانى (مفردها كرنة وهى على شكل صينية بحواف) كي يوضع فيها دود الحرير بعد تقفيصة، ثم تهيئة بواتير (مفردها باتور وهى على شكل حصير من القصب بشكل رفا للدود) القصب، وإقامة الصمديات ومشق التوت وتشييح الشرنقة أى تعريش الدودة عندما تشرنق على شيحها والشيح نبات برى (١).

وحنا مينا فى تذكره واستخدامه الخيال لملء فراغات الأحداث التى تطاير كثير من تفاصيلها بفعل الزمن، قد بدأ (حنا) من الثالثة يدرك حياته ووجوده، يشبه (حنا) هنا كتابا غربيين بالغوا فى ذلك التذكر، نذكر منهم (برد يائف) و (وليم سكوت) فقد أحس بوجودهما منذ سن مبكرة جدا، فبرد يائف قد أحس منذ الطفولة أنه كائن مستقل عن العالم حيث قال إذا كنت لا أستطيع أن أذكر الصرخة الأولى التى أطلقتها حين أتيت إلى هذا العالم، فأنى أعلم – علم اليقين – أن شعورى بهذا اليوم الأول من حياتى الواعية ،كما أشعر به فى الوقت الحاضر، وقد أدرك سكوت ذاته منذ الطفولة الباكرة حين اعترف بأنه أدرك طفولته إدراكا مفاجئا وأنه كان منفصلا عن العالم ولكن يثير العجب ما يذكره تولستوى أنه تذكر من طفولته الستة أشهر الأولى، وأنه فى هذه الفترة أنه عندما وضعته أمه فى طبق من الخشب ليغتسل فيه، شم رائحة الصابون (٢).

ومن صور التخيل فى السيرة الذاتية الأحلام والرؤى، ومن الكتاب من استخدم الحلم كقيمة فنية كعبد الحميد إبراهيم فى شواهد ومشاهد، وقد يكون الحلم أو الرؤية مجرد خبر ليعكس لنا ملمحا من ملامح شخصية صاحبها، وكانت بنت الشاطئ أول من

---

(١) راجع م. نفسه ص ١٤٢ : ١٥٤

(٢) راجع الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د. يحيي عبد الدايم ص ١٣٦

استخدم الحلم فى السيرة الذاتية ، فأوردت حلمين يعكسان لنا مدى صفائها الروحى ومساندة الله لها ، الحلم الأول يحمل بشارة لها بحفظ القرآن ، وكانت فى طريقها للحفظ وذات يوم بعد رجوعها من كتاب الشيخ مرسى نامت ، فرأت نفسها فى المنام ، كما تقول " وإذا بملاك مجنح يهبط من السماء ، قرب النافذة المجاورة لمكانى ، ويعطينى لفافة خضراء ، ثم يحلق عاليا فى السماء ، ولما فتحت اللفافة وجدت فيها مصحفا شريفا(١)

وقد شعرت بارتياح لهذه الرؤية ، وتحققت بعد ذلك ، فحفظت القرآن وهى دون العاشرة ، وقد كانت تؤمن بهذه الأحلام الروحانية ، فقد نشأت فى بيئة دينية طيبة، أبوها شيخ متصوف وجدها لأمها الشيخ إبرهيم الدمهوجى كان شيخ الأزهر آنذاك ، لذا لا غرابة أن يأتى الحلم الثانى امتدادا للحلم الأول (فى العناية الإلهية بها) وكان ذلك ليلة امتحان مادة التاريخ فى مرحلة الكفاءة الثانوية عام ١٩٣٢ ، ولم يكف الوقت لاستيعاب ما فى الكتب ، فإذا بها ترى فى المنام كما تقول إننى فى قاعة الامتحان أقرأ من ورقة التاريخ أول سؤال فيها عن مارتن لوثر وحركة الإصلاح الدينى (٢) ولما استيقظت قرأت هذا الفصل ، وكان السؤال الأول فى الامتحان عن مارتن لوثر ، وعلقت على هذا الحلم بقولها " ولم أعجب لصدق الرؤيا ، وازددت يقينا بأن الله معى على الطريق (٣) وشبيه بهذا الحلم ما حلم به د. شوقى ضيف ليلة امتحان مادة اللغة الفارسية حيث "حلم أنه فى محل كبير لبيع سجاجيد إيرانية ، وأنه اشترى ثلاثة سجاجيد ، وعجب إذ رأى أحدها مقطوعة فى أحد جوانبها واشتراها بهذا العيب (٤) واليوم التالى يأتى الامتحان مكونا من ثلاثة أسئلة ، يجيب إجابة وافية عن اثنين ، وإجابة ناقصة عن السؤال الثالث ، ويحصل على

(١) على الجسر بنت الشاطئ ص ٣٠
(٢) م. نفسه ص ٧٤
(٣) م. نفسه . نفس الصفحة
(٤) معى د. شوقى ضيف ص ١١٦

ست عشرة درجة من عشرين فى هذه المادة . وهذا حلم يكشف عن مدى الشفافية الروحية لصاحبة ، كما لاحظنا ذلك عند بنت الشاطئ .

ويروى لنا خالد محمد خالد عن رؤيته لمسجد الرسول (ص) ففى يوم من الأيام قصد زيارة ضريح الحسين (علية السلام) وفجأة كما يقول " لم أر أمامى مسجد الإمام الحسين .. وإنما وجدت مكانه مسجدا أقل حجما وأصغر مساحة مبنيا من الطوب مسقوفا بجذوع النخل وسيقانه وألقى فى روعى لحظته أن هذا الذى أراه مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان المسجد خاليا تماما إلا من واحد يلبس عمامة .. وكان متجها نحو القبلة .. وألقى فى روعى أنه سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه [1] .

لم يصدق نفسه – فخرج هائما على وجهه . يسأل الناس حتى يصدق أنه فى وعيه يسألهم الوقت يتأمل فى التحف المعروضة يسأل عن أثمانها – ليتأكد من صحة عقله ... إلخ وهذا الحدث يتفق ومكاشفات الصوفية ، فقد كان خالد محمد خالد يتحدث عن رحلته الصوفية والصفاء الروحى ، ويعكس لنا هذا الموقف مرحلة دينية هامة فى حياته عندما انتهج الطريق الصوفى .

يوظف عبد الحميد إبراهيم الحلم توظيفا فنيا فى سيرته الذاتية (شواهد ومشاهد) ، ليأتى الحلم متسقا وأحداث السيرة ، فعرضت السيرة لعشرة أحلام أغلبها تعبر عن صعوبة خطاه فى الحياة (خمسة) والتنبيه من الانحراف الجنسى (ثلاثة) ، وهناك حلمان أحدهما يعكس لنا عبثية الحياة بعد انخراطه فى حركة العبث وألف كتاب (الأدب وتجربة العبث) فرأى فى منامه قطة عيونها مطفأة ، وذيلها سحابة دخان ، ثم أرعدت السماء ، ولم تسكن [2] فهذا الحلم يوحى بعدم منطقية الحياة وعدم جدواها كما

(١) قصتى مع الحياة خالد محمد خالد ص ٢٥٦
(٢) شواهد ومشاهد د. عبد الحميد إبراهيم ط الهيئة العامة لقصور الثقافة عام ١٩٩٦ رقم ٣٥ ص ٩٦

نادى المذهب العبثى بذلك ، والحلم الثانى جاء ليعبر عن الولاء الأسرى ، والرابطة بين الابن والأب حتى بعد الممات (ابن صالح يدعوله) فرأى أنه امتطى سحابة مثقلة بالماء تحولت إلى قطرة ندى ، فطلب أن ترشه على قبر أبيه ، بعد ذلك جاءته أمه فى النوم تنبئه بأن قطرة الماء ، قد وصلت إلى أبيه ، وأنه يحتفظ بها ، ويفضلها على كل الأنهار(١) .

أما الأحلام الجنسية الثلاثة فأولهما يوحى بتوبيخه لنفسه بعدما امتدت يده على صفية (الخادمة) فكان " ينام فيرى فى حلمه كأن كلبا يرقد بجواره ، أسود غزير الشعر يشبه القرد يحتضنه ، فيحتضن الشوك ، ثم يستيقظ من نومه فزعا(٢) والحلم الثانى امتداد لهذا الحلم ، وإن اختلفت صورته ، فعندما رأى نفسه مثل كمال الشناوى فى أفلامه الغرامية استغرق مع فتاته (فى الحلم) فى قبلة طويلة ، لم يذق أطعم منها " وفجأة تنتزعة يد من قبلته وينظر إليها فيرأها يدا من حديد ، وينظر إلى صاحبها ، فيراه قردا من حديد ، كله شعر كثيف ، ويتهيأ صاحبنا لمعركة ضارية وطويلة ، ولكنه يستيقظ من حلمه وسعادته بخلاصه من القرد أشد من سعادته بطعم القبله (٣) .

فهذا الحلم مثل الحلم السابق يشير إلى تأنيب الضمير ومحاسبة الذات لنفسها وإزاء هاجس هذه الرغبة ، فيعلو صوت الضمير ، على صوت الرغبة محذرا من الولوج فى هذه المغامرة يبرر هذا ما رآه علماء النفس فى حديثهم عن الأنا *Ego* والأنا الأعلى *Super Ego* ، فالأنا الأعلى جانب من الأنا – أصابه التعديل نتيجة اعتناق الشخص وامتصاصه للأوامر والنواهى والمثل العليا .. والأنا الأعلى يطالب الشخصية بالتزام المثل العليا والأخلاقيات فى أفعالها وسلوكها وتصرفاتها (٤) .

---

(١) م. نفسه ص ١١٧
(٢) م. نفسه ص ١٦
(٣) م. نفسه ص ٥٧
(٤) موسوعة علم النفس والتحليل النفسى د. فرج عبد القادر وآخرون ط دار سعاد الصباح عام ١٩٩٣ ص ١١٥

لذا فلا غرابة أن نجد الحلم الثالث يجئ بريئا طاهرا نقيا ، فى علاقة غرامية عنوانها العفة والنقاء " حيث رأى نفسه والأميرة فوزية يتقافزان فى كرم النخيل أمام داره طويلا ، دام الحلم طويلا وقضى معها ليلة سعيدة ، وهما يتجولان ويغنيان من جدول إلى جدول (١) .

فهذا الحلم له ذكراه الحلوة فى تاريخ حياة صاحبة ، لأنه قضى لحظة جميلة مع فتاة أحلامه وجاء الحلم امتدادا للواقع ، ومازال – رغم مرور ثلاثين عاما – إذا استحضر هذا الحلم يشعر بالارتياح والسعادة (٢) .

أما الأحلام الخمسة الباقية فهى تبرز توجسه وخوفه من صعوبة الطريق (طريق العلا والخلود) لأنه كان يريد أن يكون له شأن فى الحياة ، فكان يشعر كثيرا بالقلق وجاءت الأحلام معبرة عن هذا القلق ، فقد رأى نفسه فى ليلة مظلمة رياحها عاتية "وجد نفسه يتشبث بسلم يتأرجح فى الهواء ، كان السلم من ليف خشن يتقاطع مع خشبة من سنط ، وفجأة ينزلق السلم ، ويهبط فى قاع بئر عميق ، ويجد عمه الشيخ مأمون مكتفا وبجانبه ابنه على يسقيه ملعقة ماء ويستيقظ من نومه ... ويجد نفسه حزينا منكسرا ، وقد اختلطت صورة العم بصورته (٣) وهذا الحلم جاء فى بداية طريقة فنراه معلقا فى سلم من الليف، ينقطع به ، ولكن شربه الماء (رمز للخصب) يوحى بالأمل ، ويظل هذا الهاجس مسيطرا عليه ، ليعود الحلم وبصورة أخرى ، " وكان يرى نفسه وقد صعد إلى سطح الدار ثم زلت قدمه ، وسقط حتى ارتطم بالأرض الصلبة ، وكان الحلم يتم فى جو من الظلام وزمجرة الرياح ودبدبة أرجل كأنها العفاريت " (٤) ، ويأتى الحلم الثالث مفسرا للحلمين

(١) مشاهد وشواهد د. عبد الحميد إبراهيم ص ٤٣
(٢) راجع ام.نفسه نفس الصفحة
(٣) م. نفسه ص ٣٥
(٤) م. نفسه ص ٣٧

موضحا مصدر قلقه وتوجسه " يحلم بأنه سقط فى الامتحان ، فيستيقظ مرعوبا وهو حلم قصير ، ولكن يصيبه بحال من الاكتئاب ، لا يستطيع الخلاص منه (١) ، وتتواصل الأحلام مصورة هذا القلق، خاصة إذا مر به موقف يثير فى نفسه هذا الشعور، فعندما وبخه الدكتور عمر الدسوقى لضعف بصره، قائلاً (لابس نظارات وما زلت فى بداية الطريق) فإذا به يذهب حزيناً للبيت ، فيحلم بهذا الحلم " هو فى نفق مثل القمع الطويل ، الأرض تعتصره وهو يتلوى ويتحرك كأنه يسبح فى محيط ، وأخذ يحفر باطن الأرض بأظفاره ، وطال النفق وهو يحفر ويحفر، حتى وصل إلى فتحة على سطح الأرض ، أطل فيها برأسه فوجد أخاه عبد الرحمن يبتسم ، ووجد الدنيا ملأى بنور أشبه بالضحى " (٢) وهذا الحلم أكثر تعقيداً من الأحلام السابقة ، ويوحى بصعوبة الطريق ، والعمل الشاق (يحفر بأظفاره) الذى يحتاجه حتى يتجاوزه ، ولكن بادرة الأمل هنا – أصبحت أكثر اتساعاً وإشراقاً ولكن – للأسف – جاء حلمه الأخير أشبه بالكابوس ، فبعدما حقق طموحاته وأصبح أستاذاً جامعياً ، وله منهجه الفكرى (المنهج الوسطى الذى حدد معالمه فى كتابه الوسطية العربية المكون من خمسة أجزاء) وجد نفسه فى نهاية المطاف وقد خاب مسعاه وتبددت أحلامه ، لتصدع الواقع المعيش من حوله ، لأنه – كما قال – " عانى وجرب ، ثم عاد ليؤدى رسالته ، فوجد العصر غير العصر ، والقوم غير القوم ، وجد الأغبياء يتصدرون والأدعياء يتصايحون "(٣) لقد جاء الحلم الخامس (الذى يصور صعوبة الطريق) امتداداً لصدمته بالواقع ، ليرى نفسه فى " طريق ملىء بالحصى والحفر والطين الناشف ، الذى يتكون عادة عقب الفيضان ، كان الطريق أسفل الجسر الترابى الممهد ، مكان الترعة

(١) م. نفسه ص ٣٧ .
(٢) م. نفسه ص ٦٧ :٦٨ .
(٣) م. نفسه ص ١٥٨ .

الصغيرة التى انحسر عنه الماء ، كان يحمل فوق كتفه حمله ، يقطع بها الطريق ويلهث ويرتفع فوق نتوء ليهب إلى منحدر ، بينما كان أخوه على الجانب الأعلى يقطع الجسر الترابى الممهد ، ولا يحمل على كتفه شيئاً ويبتسم فى شماتة ، ثم دفع اللحاف بيده ، وارتفع فوق سريره وصاح :

- أتلك نهاية الرحلة ، يا لضيعة العمر ، إن لم تكن هناك آخرة " (١)

صعوبة الطريق ، واستحالة السير فيه ، رمز لعقبات الواقع المرير التى أحاطت به (وبالفعل لقد هوجم عبد الحميد إبراهيم من الحداثيين لمنهجه الوسطى . . لقد حمل عبد الحميد إبراهيم هماً جماعياً ثقيلاً (هم أمة بمنهجه الوسطى) أما أخوه (رمز لأى انسان غيره لا يحمل هماً كبيراً)) فقد سار فى طريقه الممهد دون عناء ، وهذا إيحاء بثقل رسالة المفكر الذى يحمل هم الأمة وطموحها – ولكن الواقع يقف حائلاً فى وجهه . . بيد أن نفسية البطل (المؤلف) التى تحمل إيماناً خالصاً ، وجدت مخرجاً من هذا الهم بقوة الإيمان، وهنا يستحضر ما حدث للرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما جاءه الملك وشق صدره وأخرج قلبه فغسله فى طست ، فقد أتاه ملاك الرب " واقترب منه وشق صدره وانتزع علقة سوداء مرة ، ثم طوح بها بعيداً ، . . استيقظ من نومه ، وقلبه يغرد بين جنبيه كعصفور وليد " (٢)

ومن الخيال المقبول فى هذه السيرة ملاقاته لملك الموت فى نهاية السيرة ، يصور هذا الموقف فى قوله " أخذ ملك الموت يحوم حول النافذة كان يبدو كعصفور الجنة زاهياً ووديعاً وملوناً ، تبسمت إليه ، فتحول إلى شاب صغير ، جميل المحيا ، حسن المبسم عذب الحديث ، جلس جانبى على السرير وقال :

- لماذا دعوتنى

---

(١) م. نفسه ص ١٦٣ .
(٢) م. نفسه ص ١٦٥ .

- إنى أريد أن أغادرها ، إنى عشت فيها ما عشت ولم أفهم منها شيئاً ، وكافحت فيها ما كافحت ، ولم أقبض منها على شيء " (١)

ويخترق معه أبواب السماء ، ولكن يعلمه بأن أجله لم يأت بعد ، وهذا الموقف التخيلى له ما يبرره ، فملك الموت لا يرى ولا يقابل ، فهناك اتفاق مضمر بين الكاتب والمتلقى بأن هذا من صنع الخيال .

نخلص من هذا كله بأن السيرة الذاتية وان كانت تحكى أحداث واقعية ، إلا أن مجال الخيال فيها متسع ، نراه فى تحويل المواقف إلى مشاهد نابضة بالحركة والحياة ، وفى التمهيد للأحداث وبوصف الزمان والمكان ، وبالأحلام التى ترد فى السير لتضفى عليها جمالاً أدبياً ، وتعكس لنا صفة أو مرحلة من مراحل صاحبها .

٢-حياة المؤلف والواقع المعيش :

يراعى فى بناء أحداث السيرة التناسب بين سرد حياة الكاتب وسرد أحداث الواقع المعيش من حوله ، وفى ظنى أفضل السير فنياً هى التى دارت حول حياة صاحبها . ولم تتطرق إلى أحداث الواقع إلا بالقدر الذى يخدم فنية السيرة ، فلا تتحول السيرة الى تأريخ للواقع السياسي الاجتماعى والثقافى . . إلخ كما فعل د. عبد الرحمن بدوى فى سيرته (سيرة حياتى) وشوقى ضيف فى (معى) .

ومن السير التى توافر فيها هذا الملمح الفنى سيرة محمد شكرى ، فلم يتعرض الكاتب للواقع المعيش إلا بما يخدم فنية السيرة ، فقد أشارت السيرة إلى أحداث المغرب التاريخية من مجاعات فى الريف فى مطالع الأربعينات وأفواج المهاجرين بين البوادى والجبال فتبدأ السيرة بنزوحهم من تطوان إلى طنجة (ص٩) ويهاجر – هو وأبوه – إلى

(١) م. نفسه ص ١٤٧.

وهران (ص ٥٣ الخبز الحافى) ومن قبل هاجر عمه وخاله إدريس وجدته رقية (ص ٥٣ الخبز الحافى) ، وتعرض الرواية لمظاهرات عام ١٩٥٩ فى ذكرى آذار مارس الذى أعلنت فيه الحماية الفرنسية على المغرب (ص ١١٨ : ١٣٠ الخبز الحافي) وتعرض السيرة - أيضاً- لبداية هجرة أفواج اليهود المغاربة إلى فلسطين المحتلة (ص٢٠١ الخبز الحافى) واستقدام الجنود السنغاليين لقمع حرب تحرير الجزائر (ص١٥ الشطار) حتى تم إعلان استقلال المغرب ، كل هذه الأحداث جاءت متسقة وبناء أحداث السيرة التى تسرد لحياة صاحبها ، دون أن نجد تضخماً فى سرد لأحداث الواقع فى بناء الرواية ، بل نجد لهذه الأحداث الأثر الإيجابى فى بنية النص ، وتطور شخصية صاحبها فقد صاحب تحرر المغرب تحرر ذات الكاتب وبلوغه سن الرشد ، فقد أتاحت . . لأبناء القاع الاجتماعى - الذى ينتمى إليهم صاحب السيرة . أن يحققوا أمانيهم ، ويلتحقوا بالدراسة ، فالاستقلال يعد بمستقبل أفضل لهم ، ويفتح أمامهم فرصاً لم يخطر على البال من قبل أن بإمكانهم الحصول عليها (١) .

كثير من السير لم تشر فى طياتها إلى الأحداث السياسية المحيطة بها ، وكأن أصحابها رأوا أن مسيرة أحداث حياتهم لم تتأثر بهذه الأحداث ، لذا فالإتيان بها يعد نتوءاً فى جسد البناء الفنى للسيرة ، ونذكر من هؤلاء أحمد أمين فى حياتى ، وتوفيق الحكيم - أيضاً - فى حياتى (التى طبعت من قبل تحت عنوان سجن العمر) وطه حسين فى الأيام ، إن أشار إلى حزنه لتعطل السفر إلى فرنسا لظروف الحرب العالمية الأولى .

(١) البنية النصية لسيرة التحرر من القهر د. صبرى حافظ ص ٢٣١ .

بعض السير الذاتية اهتم أصحابها اهتماماً كبيراً برصد مجريات وأحداث الواقع المحيط بهم ، فجاءت حياتهم فى سيرهم على هامش هذه الأحداث ، أكثر من هذا أن هذه الأحداث أصبحت عبئاً وهماً ثقيلاً على كاهل هذه السير ، خاصاً د. عبد الرحمن بدوى فى (سيرة حياتى) ود . شوقى ضيف فى (معى) .

فسيرة حياتى عبد الرحمن بدوى تبلغ (٧٦٥ ج١ ٣٨٢ ج٢ ٣٨٣ صفحة) ترى لنشأة صاحبها منذ ولادته فى يوم ١٩١٧/٢/٤ وحتي مارس ١٩٨٨ (حين ذكر لنا شعراً يشكو فيه المرض ٣٧٨/٢) رغم أن أحداث السيرة تنتهى بزيارته لإيران عام ١٩٧٥م ومجمل حياته أنه نشأ فى قرية شرباص مركز فارسكور محافظة الدقهلية ، ثم التحق بمدرسة فارسكور الابتدائية ، وحصل عام ١٩٢٩ على الشهادة الابتدائية ، ثم التحق بالمدرسة السعيدية الثانوية ، وأكمل دراسته فى القسم الأدبى ، وحصل على البكالوريا عام ١٩٣٤ ، والتحق بكلية الآداب وتخرج من قسم الفلسفة بها عام ١٩٣٨ م ، وعين معيداً وحصل على الماجستير عام ١٩٤١ م ، ثم الدكتوراه عام ١٩٤٤ وعمل بعدها أستاذاً للفلسفة (جامعة القاهرة) ، وألف عدداً كبيراً من الكتب ، وترجم وحقق الكثير ، سافر إلى ايطالياً وفرنسا وهولندا وسويسراً وأمريكا وليبيا وإيران . .عمل مستشاراً ثقافياً لسفارة مصر بسويسرا ، ومحاضراً فى السربون ، وأستاذاً للفلسفة بالجامعة الليبية . . وحضر مؤتمرات عدة خارج وداخل مصر . . هذه سيرة حياة شاغرة بالنشاط والعطاء العلمى . إلا أننا نجد سيرة حياته على هامش الأحداث السياسية والاقتصادية والثقافية التى يعرض لها فى سيرته فمن البداية يبدأ بالتعريف بقرية (شرباص) موقعها ، الصراع الذى بها، أراضيها الزراعية ودور شركة النيل الزراعية فى استثمار أراضيها ، جمالها الطبيعى ، لهجتها (١)

(١) راجع سيرة حياتى د. عبد الرحمن بدوى ١/ ١٥:١ .

ثم يتتبع فى قريته لأنماط من الناس بها ، وبعض الطقوس والاحتفالات (من ص ١٧ : ٢٢) ، ويذكر لطفولته وتعليمه ، فى صورة بطيئة وثقيلة ، فنعجب له – وهو فى العاشرة – أن يكون ذا ذوق ناقد يقول " إن لأسلوب المنفلوطى سحراً لا يعرفه إلا الشباب المرهف الحس . . ومن اللحظة الأولى انصب معظم إعجابى على طه حسين ثم محمد حسين هيكل أما العقاد فلم يثر فى نفسى أى إعجاب " (١) ، ثم يذكر التاريخ مركزه (فارسكور) الذى تتبع له قرية شرباص ، فيروى أخباراً تاريخية هامة ، هى أن توران شاه ابن السلطان الصالح أيوب قد أقام معسكره فى فارسكور بعد وفاة والده ،وفى هذا المعسكر عقد (توران شاه) المعاهدة بالصلح مع لويس التاسع الذى قاد الحملة الصليبية السابعة ، وانتهت بهزيمته فى فبراير عام ١٢٥٠ م . (٢)

وفى تتبعه لمساره العلمى يهتم بذكر الأساتذة والحديث المسهب عنهم وخاصاً لالاند وكوبريه فى قسم الفلسفة ، وأشاد بالشيخ مصطفى عبد الرازق ، وذم الشيخ محمد عبده . وأطال فى رصد للحركة السياسية فى هذه الفترة ، وحمل على سعد زغلول والنحاس وأشاد بهتلر وأعجب بالنازية .. (هذا إسهاب مخل فى تتبع سيرة حياته) . وبعد حصوله على الدكتوراه يتواصل فى سفره إلى أوربا ، وكان قد بدأ هذا السفر فى السنة الثالثة الدراسية ، وفى رحلته يرصد كل شيء الفندق الذى يقيم فيه ، بناؤه ، أهم الشخصيات التى أقامت به ، الشوارع المحيطة ، زيارته لبعض الحدائق والآثار ، يرصد كل هذا رصداً صارماً دقيقاً ، فأول رحلة لأوربا بدأت بإيطاليا ثم إلى فرنسا (من ص ٦٧ : ١١٢) يبدأ بالحديث عن وصوله ميناء بيريه فى يونيه ١٩٣٧ ، ثم وصوله روما وإقامته فى فندق فيلارايس ، ويتحدث عن الشوارع المحيطة بالفندق ، وجولاته فيها ، فى أسلوب يصعب

(١) م. نفسه ١ / ٢٨ .
(٢) راجع م. نفسه ١/ ٣٠ .

على القارئ فهمه ، لكثرة ذكره لأسماء غريبة في هذه المناطق غير المعروفة لدينا ، وذكر أسماء وشخصيات قابلها لا يقدم ولا يؤخر ذكرها ، أو معرفتها ، ثم يذكر بعد ذلك وصوله مدينة منشن (ميونخ) فيتحدث عن هذه المدينة تحت عنوان (لمحة عن المدينة) ص٧٨: ٨٨ ، يعرض لتاريخ المدينة وأهم معالمها ، وعندما يحضر ندوات علمية ، يذكر للأساتذة تاريخهم العلمي وإنتاجهم العلمي (ولتر ريم – كيلر- ويتر) ثم يتحدث عن مصريات في (منشن) وبعدها يتحدث عن النازية (٨٦ : ٩٠) ويختم حديثه تحت عنوان (حصيلة إقامتي في مانشن) ٩٠ : ٩٤ ، ويغادر منشن إلى بيروجا الإيطالية وعندها يقف على تاريخ المدينة (٩٥ : ١٠٦) ويعرض للفن فيها خاصاً فن الموسيقى (١٠٦ : ١٠٨) ويتحدث عن الأحداث السياسية في بيروجا (سافر موسوليني منها إلى المانيا) كل هذا يعد ركاماً وثقلاً على بنية السيرة ، ففي رحلة عمل إلى لبنان عام (١٩٤٧: ١٩٤٨) يتحدث عن البنسيون الذي أقام فيه ، ويتحدث عن لقائه بما سنيون (المستشرق الألماني) ومرضه (ماسينيون) والمدرسة العليا التي ألقى فيها محاضراته ، فيشيد بهذه المحاضرات إلى درجة الزهو والتفاخر ، ويقلل من شأن الآخرين ، فينذم فؤاد أفرام البستاني ويصفه (بالدجال الجهول ص ١٦٤) والأب موتر رئيس ما يسمى بمعهد الآداب الشرقية ، وهو مسخ مزيف من معهد ومن آداب شرقية ، فمستواه العلمي في غاية الهبوط ، ومستوى القائمين بالتدريس فيه منحط للغاية ص ١٦٤ ، ويدخل في معارك مع اليسوعيين ومع غيرهم من المسلمين منهم شيخ يدعى الشيخ (طيرة) لا يعرف غير الوشاية والدس ص ١٦٦ ويعود بعدها ليزور فرنسا ، ويطيل في وصف الأماكن والمعالم والشوارع ومن العجيب وصفه لكنيسة نوتردام دي باري الوصف الطويل المسهب (من ص ١٨٨ : ٢٠١) .

وفى أثناء عمله مستشاراً فى السفارة المصرية فى سويسرا (من عام ١٩٥٦ : ١٩٥٨) يطيل فى تتبعه للعدوان الثلاثى على مصر والوحدة مع سوريا فى لهجة الناقم على كل شيء، الرافض لكل شيء ، ويفرد فصلاً طويلاً عن الحياة السياسية فى سويسرا (ص٢٥٣ : ٢٦٢) ويصف الشعب السويسرى (٢٦٢ : ٢٧٠) ويقف على الحياة اليومية فى برن (٢٧٠ : ٢٧٤) وجولاته فى سويسرا (٢٧٤ : ٢٧٦) والأمن فى سويسرا (٢٧٧ : ٢٧٨) وفى حديثه عن سفره لهولندا ، يعرض للمحة تاريخية عن هولندا ولفن التصوير فيها وللحياة الأدبية والفكرية فى هولندا المعاصرة . . وعلى هذا المنوال فى الجزء الأول من سيرته .

وفى الجزء الثانى من السيرة لا وجود نهائياً لصاحب السيرة ، يهاجر عام ١٩٦٧ إلى فرنسا ، ويكتب عن هذه الهجرة التى استمرت شهوراً من ١٩٦٧/٢/١٩ إلى ١٩٦٧/٩/١١ من ص ٥ : ١٠٣ يتحدث فيها عن (الحياة الثقافية فى باريس – ثورة فى التعليم العالى – ثورة فى أخلاق الطلاب – الحالة السياسية فى فرنسا – الإبداع الفكرى آنذاك – الظلام يخيم على المسرح – أفول نجم المقاهى الأدبية – موقف فرنسا من حرب ١٩٦٧ كالآتى (موقف الحزب الشيوعى الفرنسى – موقف الحزب الديجولى – موقف الصحافة الفرنسية – استبيان الرأي العام فى فرنسا – أحداث فكرية – معرض لوحات مصورين من القرن الحالى)) .

وفى عمله أستاذاً فى الجامعة الليبية من عام (١٩٦٧ : ١٩٧٣) يقوم بإعداد دراسة شاملة عن الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية فى ليبيا تحت هذه العناوين (الأحوال السياسية فى ليبيا – القبائل ودورها فى الحياة السياسية فى ليبيا – المذاهب الإسلامية فى ليبيا – النشاط الفكرى والسياسى لإباضية ليبيا – الطرق الصوفية فى ليبيا

– اللغات واللهجات فى ليبيا – تركيب السكان فى بنغازى – عمله فى الجامعة – مؤلفاته فى تاريخ الفلسفة فى ليبيا – الفتح العربي الإسلامى – أهل العلم فى طرابلس وبرقة – الأحوال العلمية العصر الحاضر – زيارة لروما – للفاتيكان – لباريس – لأمريكا . .) .

وفى زيارته لطهران لحضور مؤتمر أبى ريحان البيرونى فى سبتمبر عام ١٩٧٣ ، ثم عمله لمدة عام فى جامعتها من (١٥ سبتمبر سنة ١٩٧٣ حتى يونيو سنة ١٩٧٤) يرصد للحياة السياسية والاجتماعية والدينية هناك تحت هذه العناوين (لمحة عن التاريخ السياسى لإيران الحديثة – شاه عباس الأول – الفتنة البائسة – ناصر الدين شاه والاحتكارات الأجنبية – الحركة الدستورية – ملامح الدستور الإيرانى – إيران أثناء الحرب العالمية الأولى – حكم رضا شاه – حكم محمد رضا شاه – الثورة البيضاء – الأحوال الدينية فى إيران – المذهب الشيعى فى إيران – مراجع التقليد – المدارس الدينية – الوعاظ والروضة الحسنية – أعياد الشيعة – عاشوراء – أصناف رجال الدين – محاولات إصلاح رجال الدين – موقف رجال الدين من المرأة ، وموقف رجال الدين من الموسيقى والغناء – المتفلسفة من رجال الدين – مع رجال الأدب – اللغة الفارسية واللغة العربية – مدينة شيراز. (١)

إضافة إلى رصده لرحلاته بمنهج المؤرخ الذى يرصد لكل جوانب الحياة للبلد الذى يزوره ، يرصد لحياة السياسية فى مصر ، يقتل الهوى موضوعيته فى الحكم والتقييم للأحداث السياسية ، فثورة يوليو قد تحفظت على ممتلكات أسرته ، بعد صدور قانون الإصلاح الزراعى ، ولم تترك للعائلة سوى خمسين فداناً ، لذا راح يتنكر لها ويندد بمبادئها

(١) راجع سيرة حياتى د. عبد الرحمن بدوى المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت عام ٢٠٠٠ جـ ٢ من ص ٢٥٧ : ٣٨٣ .

وبقادتها ، ويتخبط سياستها ، وبنفس هذا المنهج المتحامل على الآخرين يرصد للحركة السياسية فى مصر قبل ثورة ١٩٥٢ م ، فينتقد حزب الوفد فى صورة زعمائه فسعد زغلول كان وزيراً فى وزارة مصطفى فهمى عميل الإنجليز وقد تزوج من ابنته فى الوقت الذى كانت مصر تلعنه . . وكان من المودعين للورد كرومر الذى خطط لمأساة دنشواي . . إلخ وقد خلفه النحاس الذى قال بعد مفاوضته مع الإنجليز عام ١٩٣٠ خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز ، وتولى الحكم يوم ٤ فبراير عام ١٩٤٢ بأمر من الإنجليز الذين هددوا بخلع الملك فاروق إذا لم يستجب لهذا الطلب (١) ، وينتقد الحزب الوطنى الديموقراطى رغم إشادته بمصطفى كامل ، أما أقطابه " إما ثرثارين مهيجين متجردين بالدين مثل عبد الحميد سعيد ، وإما أعيان لهم نفوذ فى مناطقهم دون أن يصبح ذلك ثقافة وفهم سياسى مثل عبد اللطيف واكد وعبد العزيز الصوفانى " (٢) ، ويرصد لحزب مصر الفتاة الذى انضم إليه ، وكتب مقالات سياسية عن السياسة الخارجية بتوقيع (محرر الشئون الخارجية) وتتبع مسيرة هذا الحزب وتغيير اسمه (الحزب الوطنى الإسلامى) حين ركب قادته موجة الدين وأرسلوا رسائل إلى هتلر و موسولينى لاعتناق الإسلام . . إلخ فتنصل من هذا الحزب . (٣) ويقف على تأسيس حركة الإخوان وميولهم السياسية ، واغتيلاتهم للقادة مما أدى إلى اغتيال حسن البنا ، ويرصد لحركة حكومة الأحزاب المتعاقبة ، منذ بدأ يعى الحياة السياسية فيذكر لإقامة وزارة توفيق نسيم فى يناير ١٩٣٦ ، وتكليف على ماهر بتشكيل وزارة محايدة ، ثم أجريت انتخابات فاز فيها الوفد بالأغلبية ، وشكل مصطفى النحاس الوزارة (وزارة وفدية) وسافر إلى لندن لعقد معاهدة مع الإنجليز ، ووقع فعلاً على

---

(١) راجع م. نفسه ١ / ٤٨ .
(٢) م. نفسه ١ /٥٢ .
(٣) راجع م. نفسه ١ / ١٢٧ : ١٣٠ .

معاهدة فى ٢٦ أغسطس عام ١٩٣٦ ، واعترض الطلاب على بنودها ، وكانت ثورتهم فى ١٣ أكتوبر عام ١٩٣٧ ، هذه الثورة أدت إلى سقوط وزارة الوفد فى ٣٠ ديسمبر فى العام نفسه وكُلف محمد محمود بتشكيل الوزارة وكانت وفاته فى ١٩٤١/٢/١ ، ثم أصبحت الوزارة تحت جناح السعديين يؤلفون الوزارات من أكتوبر ١٩٤٤ حتى أغسطس عام ١٩٤٩ م أحمد ماهر والنقراشي (وكلاهما أغتيل) وإبراهيم عبد الهادى ، ثم وزارة النحاس التى أقيلت فى مساء يوم حريق القاهرة ، وتوالت الوزارات التى لم تعمر إلا أسابيع قليلة، وزارة على ماهر فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ ، فوزارة نجيب الهلالى ، فوزارة حسين سرى ، وأخيراً وزارة نجيب الهلالى الثانية حتى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . الخ .

أما موقفه من ثورة يوليو فبدأ من أول السيرة ، فوصفهم بالطفيليين الحاقدين المنافقين ، وذكر أن فكرة القضاء على الإقطاع خلقت الضغينة بين قطاعات الشعب (١٦/١) وتحدث فى الجزء الأول تحت عنوان السنة الكبرى عن الثورة (ص ٣٢٨) وفسر لسبب نجاح (هذا الانقلاب على حد قوله) المفاجأة التامة من جانب المدبرين ، وانعدام العزم عند الحاكمين (١ / ٣٢٨) ونقد عبد الناصر واتهمه بالتهور والحمق والجهل وندد بلجنة تصفية الإقطاع التى تحفظت على أراضيهم ، وفرضت الحراسة على أسرته فى ١٩٦٦/٩/١٧ ، وتحدث طويلاً عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، بأسلوب الناقد الناقم المتشفى (٢/٥٦ : ٩٣) .

نخلص من هذا كله إلى أن سيرة د . عبد الرحمن بدوى (سيرة حياتى) جعلت جل اهتماماتها على :-

١- الحديث عن قرية شرباص ومركزها فارسكور (فى كل ألوان الحياة) .

٢- الحديث عن رحلات صاحبها والدول التى زارها (باريس – منشن – سويسرا – بيروجا – ليبيا – إيران) فى مجالات السياسة والفكر.

٣- الرصد للحركة السياسية فى مصر من بداية وعيه وإدراكه للواقع السياسي من عام ١٩٣٩ (هو من مواليد ١٩١٧) واتخذ موقفاً معادياً من ثورة يوليو وإخفاقاتها (خاصاً نكسة يونيو عام ١٩٦٧)

٤- آخر شيء يمكن أن نراه فى السيرة حياة صاحبها الذى لو حصرنا الصفحات التى تحدث فيها عن نفسه ما بلغت عشر عدد صفحاتها التى تقارب الثمانمائة ، وهذا دليل دامغ على تغليب السرد لأحداث الواقع عن السرد لسيرة حياة صاحبها .

وفى سيرة شوقى ضيف (معى) يتضاءل حجم الأحداث المعبرة عن حياة صاحبها بالقياس لسرده لأحداث الواقع المحيط به ، ولا نجد فى السيرة معايشة وجدانية لصاحبها فى الحديث عن وقائع حياته ، فهو يرصد ويحصى ، ولا يعبر عن أعماقه وصدى أحداث الواقع عليه من الداخل ، أكثر من ذلك يشعر القارئ بانفصال بين ذكره لأحداث الواقع وأحداث صاحب السيرة ، لأنه ليس عنصراً فاعلاً فى هذه الأحداث فهو يتحدث بإسهاب عن تعاقب وحكومات الأحزاب قبل الثورة ، ولا نجد لصاحبها انتماء لحزب معين ، فعرض - كما ذكرنا من قبل – فى المبحث الأول) لحكومة الأحزاب من عام ١٩٢٢ ، حتى حكومة محمد محمود عام ١٩٣٩ ، وأين هو من هذه الأحزاب ؟ وما أثر تعاقب الحكومات على حياته الخاصة ؟! لست أدرى !

وبحساب الكم عدد صفحات السيرة (١٣١ من القطع الصغير) منها ٣٧ صفحة (الثلث) تعتبر مقدمة لوصف قريته عاداتها تقاليدها ، الطبقات الاجتماعية فيها عمل أهلها ، . . إلخ . . وقد راعى الكاتب هذه النسبة فى فصول السيرة ، فالفصل

الثالث الذى يروى فيه لحفظ القرآن الكريم مكون من عشر صفحات لا يتحدث عن نفسه إلا فى ثلاث صفحات من ص ٤٠ : ٤٣ والفصل من ٣٨ : ٤٨ . وشغل نفسه فى بقية الفصل بأحداث جانبية كاستغرابه من عداوة النساء لأزواجهن مصداقاً لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) ومرجع هذا الاستغراب حب أمه الشديد لأبيه ، ويسرد فى هذا الفصل لأحداث سياسية لا تمت للسيرة من قريب أو بعيد فقد تحدث عن ثورة الشعب المصرى ضد الإنجليز عندما شكل سعد زغلول وفداً برئاسته وعضوية عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى لمقابلة ريجنالت ممثل إنجلترَ فى مصر ، لتقديم مطالبه الوطنية ، . . وتفشل المفاوضات وتقوم ثورة الشعب ، وينفى سعد وأصحابه إلى مالطة ، فى مارس عام ١٩١٩ ، ونتيجة لاشتعال الثورة يقررون إرجاع سعد ، ثم يعتقل سعد فى ١٩٢١/١٢/٢٣ م وبعدها يأتى تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ ، ثم تأليف حزب الأحرار الدستوريين فى أكتوبر عام ١٩٢٢ ، وبعدها يعرض للحرب بين الترك واليونانيين فى عام ١٩٢٢ أيضا . . إلخ .

والفصل الرابع (من ص ٤٩ : ٧٣) لا نجد عن سيرة حياة صاحبها سوى انسجامه مع طرق تدريس الأزهريين التى تعتمد على المتون والحواشى والشروح ، وينقد من ينادى بتبسيط العلوم أو إيجازها (ص ٥٠ ، ٥١) ويشير – أيضاً – إلى شغفه بقراءة المقالات فى الصحف اليومية (البلاغ – السياسة - الخ) واقتنائه كتاب حديث القمر للرافعى . . أما باقى الفصل فهو يتحدث عن الوزارات الحزبية المتعاقبة ، فلو أن صاحبها شغل نفسه بالسرد لحياته رابطًا بها الأحداث الخارجية المحيطة به والمؤثرة فى حياته ، ما كانت هذه السيرة بهذه الصورة من تهميش حياة صاحبها ودوره فى الحياة . . إلخ .